من السبب الظاهر، نصر حاضر ملموس «بالمؤمنين» ونصر غائب بملائكة أم دونهم، كما ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[1] و﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ في ذلك التأليف الأليف ﴿مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ حيث القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء لما يشاء، فطالما النعمة تكفَّر والرحم يُقطع، ولكن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيءٌ، ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾[2] ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾ فيما يفعل ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يغفل ولا يجهل.

ذلك، وهذا التأليف الأليف كان بالرسول ﷺ مهما لم يكن من الرسول ﷺ فحين تؤلف قلوب بنصيب من الزكاة للمؤلفة قلوبهم فبأحرى منها النبي ﷺ أن يؤلف الله به القلوب:

فقد «بلغ رسالات ربه فلّم به الصَّدْع ورتق به الفتق وألف بين ذوي الأرحام بعد العداوة الواغرة في الصدور، والضغائن القادحة في القلوب»[3].

ف «المؤمن غر كريم والفاجر خبث لئيم وخير المؤمنين من كان تألُّفه للمؤمنين ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»[4].

= ١٤: ٥٨٥ ورواه الحسكاني في شواهد التنزيل ١: ٢٢٣ بعدة طرق عن أنس وجابر وأبي الحمراء عنه ﷺ.

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٣) نهج البلاغة قال عليه السلام: «وبلغ رسالات ربه».

(٤) نور الثقلين ٢: ١٦٦ في أمالي الشيخ الطوسي بإسناده إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: المؤمن غرّ كريم، قال عليه السلام: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: شرار الناس من يبغض المؤمنين وتبغضه قلوبهم المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون للناس العيب أولئك لا ينظر الله إليهم ولا يزكيهم يوم القيامة ثم تلا ﷺ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

ذلك، ولأن الدار هي دار التزاحم، ولكلٍّ طموحات غير محدودة تقتضي التحسد على أصحاب النعم التي هو يفقدها، فلا يمكن إزالة البغضاء والعداء اللذين هما الخلفية الطبيعية، أن تزال بما في الأرض من نفس هذه النعم، اللَّهم إلَّا بعناية ربانية على ضوء الإيمان بالله مهما كانت بسبب أرضى كالأموال، أم سماوي كالرسول ﷺ.

فطالما حاول كثير من أولي النعمة أن يؤلفوا قلوب المعدمين بأموال فازدادوا بغضاء وعداءً، إذ لا صلة لهذه العطيات بمرضاة الله وعناياته الخاصة، فالرحمة الربانية هي الأصيلة في أية وسيلة هي وصيلة للتأليف: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[1].

فهنا تأييدان اثنان ربانيان: ١ - ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ﴾ الخاص دون أسباب ظاهرة، سواءٌ أكان بالملائكة أم دون أي سبب خلقي، ٢ - ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم من الأسباب الظاهرة ولكن شرطَ تأليف قلوبهم، وليس هو أيضاً إلا من الله، إذاً فالنصر واحد هو من عند الله دون فارق في أصله أنه من عند الله.

فلقد وقعت المعجزة الربانية التي لا يقدر عليها إلّا الله، أن استحالت هذه القلوب النافرة المستنفرة، وهذه الطباع الشَّموس المستنكرة، استحالت إلى هذه الكتلة المتراصَّة المتآخية الذَّلول، المتحاثَّة بعضها بعضاً في تحكيم الألفة والمحبة بذلك المستوى المنقطع النظير في تاريخ أي بشير ونذير.

إنها بالفعل عجيبة أن تستحيل قلوب متنافرة إلى مزاج عريق من الحب والألفة الإيمانية التي تليِّن جاسيها، وترقق حواشيها، وتندي جفافها، فإذا نظرة العين ولمسة اليد ونطق اللسان وخفقة القلب، هي ترانيم من التعارف

(١) سورة هود، الآيتان: ١١٨، ١١٩.

والتعاطف الوطيد العتيد والسماحة والهوادة، التي لا يعرف سرها إلا الذي ألف بينها.

ولمثل هذه القلوب يقول الرسول ﷺ: إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى، قيل: يا رسول الله ﷺ تخبرنا مَن هم؟ قال: هم قوم تحابوا برَوح الله بينهم على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، والله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس[1].

وترى حين لا يتمكن رسول الهدى ﷺ أن يؤلف بين قلوبهم وهم مؤمنون ولو بأن ينفق ما في الأرض جميعاً، فما هو دور المؤلفة قلوبهم في حقل الزكاة؟

الجمع هنا أن ليس الإنفاق بالذي يؤلف بين القلوب إن لم يشأ الله، ثم الله يؤلف بين القلوب بمؤلفات ومنها الزكاة.

ثم هنا التأليف بين قلوب المؤمنين وهناك تأليف قلوب الكافرين إلى الإيمان، فالمؤلفة قلوبهم إلى الإيمان هم الذين تكمكت الدعوة الصالحة لهم إلى الإيمان، ثم تُزوَّد جاذبية الدعوة بذلك الإنفاق فيؤلَّفون إلى الإيمان بإذن الله.

فـ ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾[2] إلى الإيمان هم الذين ألفت قلوبهم قبل الإنفاق، ثم يكمل للدخول في ربع الإيمان بالإنفاق.

وأما المؤمنون المختلفون فقد يؤلف بين قلوبهم بما يريد الله وبصالح الدعوة الرسالية.

---

(١) أخرجه أبو داود عنه ﷺ.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٠.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ
حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ
مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ
قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ
فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ
أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ
أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ
وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ
عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن
يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ
غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ
مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ
بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ
بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ
وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم
مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ
إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ أصلاً في كل حسْب وحساب، ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأمر الله ونصره لهم، فهم أيضاً من حسْب الله حسب أمر الله وتقديره، وحساب الله وتدبيره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

تكتيك عَددي حربي إلى عُددَ لها عرفناها من ذي قبل: ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ وهو أمر مرحلي في ظروف حاسمة خطرة تقتضي مواجهة الواحد من المؤمنين بعشرة من الكافرين، قضيةَ كثرتهم أولاء وقلتهم هؤلاء و﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أولاء ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

فقد أمر المؤمنون القلة أمام الكافرين الكثرة أن يقاتلوهم ويغلبوهم وهم معشارهم: ﴿عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ﴾ - و - ﴿مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا﴾.

وترى إذا كان القصد من العشرين أمام مائتين واجبُ تحمل المِعشار من المؤمنين أمام عشرة أضعافهم من الكافرين، فلماذا - إذاً - البداية بـ«عشرين»؟

لأن المعشار غير مفروض فيما دون العشرين وقد كانت سرايا

الرسول ﷺ لأقل تقدير العشرين، ولأكثرها قد تكون مائة فلذلك إن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً، تأكيداً لواجب المعشار وتبيناً للحالة الحاضرة، كما وقد ابتدأ في الآية الثانية بالمائة مما يلمح أن المائة حينذاك كان أقل تقدير في أكثرية الأحيان ثم الألف.

لأن الفقه هو التوصل بعلم حاضر إلى علم غائب والكفار لا يعلمون غائب الكون بحاضره لا مبدأً ولا معاداً ولا ما بين المبدأ والمعاد، وإنما ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[1] فهم لا يبصرون بالدنيا ما وراءَها وإنما يبصرون إليها كأصل وختام للحياة، فهم - إذاً - حريصون على الحياة الدنيا، والمؤمنون حريصون على الآخرة، فهم أولاء يضحون في سبيل الله ولا يبالون أن يُقتلوا فيها، والكافرون حريصون على الدنيا حائطون عليها بكل حائطة، وطبيعة الحال بين هؤلاء وهؤلاء، الصابرين في سبيل الله والذين لا يفقهون إلا اللهو، أن يغلب الأولون على الآخرين، اللَّهم إلّا إذا تخلف فريق عما شُرط له أو عليه.

ذلك، فالمؤمن الفقيه الصابر إنما يقدم في الجهاد قضية إيمانه الفقيه الصابر، وهو هو القوة التي لا قوة فوقها يساميها أم مثلها فيساويها، فالشجاعة والجرأة والاستقامة والطمأنينة والثقة بالله وأنه يتربص إحدى الحسنيين، هي التي تعدل - لأقل تقدير - عشراً من القوات الكافرة الخاوية عن تلكم القوات الإيمانية.

فحينما المؤمن يطير ويستطير بهذه القوى، ليس الكافر ليطير إلا بالهوى، فما اتفق الكافر وغايته الغاوية الهاوية وهي الحفاظ على الحياة الدنيا وزينتها، فهو مقدام عليه دون أية هوادة، فأما أن يموت في سبيل هذه

(١) سورة الروم، الآية: ٧.

الحياة فلا، ولكن المؤمن يموت في سبيل حياة هي أحيى وأبقى ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[١].

فالصبر والفقاهة المستصحبان للإيمان هما رمز الغلبة على أصحاب الفشل والسفاهة المستصحبان للّاإيمان، وهذه سنة مستمرة بين المتناحرين، أن الأقوى منهم روحية وتصميماً وغاية هو الأقوى في النضال على أية حال.

فمعشار المؤمن من الكفار مغوار يقتل عشرة منهم بطبيعة الحال، فـ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[٢] تقرر أقل تقدير لفاعلية الحسنة، فلأن الجهاد حسنة فمجاهد واحد بجهاده في سبيل الله له عشر أمثاله من قبيل الكفر أن يغتالهم أو يقتلهم أو يغلبهم دونما تزعزع وفتور.

ثم ﴿يَغْلِبُوا۟﴾ مرتين في النص هي بصورة الجزاء خبراً عن الشرط ولكنه أمر لأمور عدة: منها أن في كونها خبراً كذباً حيث غُلبوا ويغلبون مراراً وتكراراً، ومنها أن التخفيف لا مجال له في الخبر إلا كذباً و﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ تخفيف من المعشار المغوار إلى ضِعف في واجب القرار ومحرم الفرار.

ذلك ولكن الإخبار هنا معني بضمن الإنشاء وبينهما فارق تحليق عناية الإنشاء على كافة الموارد كضابطة، ولكن صدق الإخبار يكفيه حصول المخبر به بطبيعة الحال، ومهما تخلف أحياناً فإنه لملابسات مضادة لشروط الغلبة.

وهنا ﴿يَغْلِبُوا۟﴾ دون يقاتلوا دليل واجب الغلبة بواجب المعشار فضلاً عما فوقه، ولأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، فإذا فلت فالت دون تقصير من معشار المؤمنين فلا بأس به.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٦٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

فإيجابية العدد المعشار في المؤمنين هي لأمور منها أنهم ﴿صَٰبِرُونَ﴾ وسلبية القوة للكافرين بأضعافهم العشرة ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ فما هي الصلة بين عدم الفقه وأنهم يغلبون؟

﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

ترى ولماذا يعبر هنا عن المعشار والنصف بهذه الطائلة المفصلة، وما هو اختصاص «عشرون ومائة وألف وألفان»؟

علّه كما أسلفناه - لأن سراياه ما كانت تقل عن عشرين ولا هي أكثر من مائة[١] فقضية واقع الحال أن يعبر عما هو، فقد فرض عليها الاصطبار حتى الغلبة في نطاق معشار المؤمنين من الكفار، ثم ولم يكن المعشار إلا في نطاق العشرين وما زاد، فلا يجري الحكم في الأقل من العشرين، كما لا يجري في الأقل من المائتين في الحكم الثاني[٢].

(١) في تفسير الفخر الرازي ١٦: ١٩٤ روي أنه ﷺ كان يبعث العشرة إلى وجه المائة بعث حمزة في ثلاثين راكباً قبل بدر إلى قوم فلقيهم أبو جهل في ثلاثمائة راكب وأرادوا قتالهم فمنعهم حمزة وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن أنيس إلى خالد بن صفوان الهذلي وكان في جماعة فابتدر عبد الله وقال: يا رسول الله ﷺ صفه لي فقال: إنك إذا رأيته ذكرت الشيطان ووجدت لذلك قشعريرة وقد بلغني أنه جمع لي فاخرج إليه واقتله، قال: فخرجت نحوه فلما دنوت منه وجدت القشعريرة فقال لي: من دخل؟ قلت له: من العرب سمعت بك وبجمعك ومشيت معه حتى إذا تمكنت منه قتلته بالسيف وأسرعت إلى الرسول ﷺ وذكرت أني قتلته فأعطاني عصاً وقال: أمسكها فإنها آية بيني وبينك يوم القيامة.

(٢) نور الثقلين ٢: ١٦٦ في تفسير العياشي عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول في آخره: وقد أكره علي بيعة أبي بكر مغضباً اللّهم إنك تعلم أن النبي ﷺ قد قال لي: إن تموا عشرين فجاهدهم وهو قولك في كتابك: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾ وسمعته يقول: اللّهم فإنهم لم يتموا عشرين حتى قالها ثلاثاً ثم انصرف، أقول: استدلاله عليه السلام بالآية مما يدل على أنها غير منسوخة بالثانية نسخاً رسمياً، إنما هو نسخ أحياناً حسب مختلف الإعدادات والاستعدادات الإيمانية والملابسات الحربية.

ذلك، ولمّا شق على المؤمنين ذلك التكليف قلة في اصطبارهم وعلة في قرارهم ضعفاً في كثير منهم مهما صمد القليل، خفف الله عنهم المعشار إلى الضعف[١] قضيةَ الضَّعف.

وترى ذلك الضعف هو في العِدة والعُدة الحربية؟ ولا يسبب هذا الضعف تخفيفاً عن التكليف حيث الفرض فيه واقع ذلك الضَّعف! إنه ضَعف في الفقه والاصطبار أمام العِدة والعُدة الزائدة للعدو، وهو قضية الحال وطبيعتها حين يكثر المؤمنون والصادقون فيهم - بالطبع - قلة، وفي الكثرة علة، وهذا مما تعنيه: ﴿فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ دون أنتم ضعفاء، إنما فيكم، في ظرف الكثرة العددية يكون لأكثركم، ضعفاً في الإيمان بفقهه وصبره.

وهنا «علم» بين علم حاضر لحضور وحدوث معلومه أن حدث فيهم ذلك الضعف، وبين علم سابق معه بسابق ضعفهم وأنهم سوف لا يتحملون ذلك التكليف العضال.

فـ ﴿ٱلْـَٰٔنَ﴾ وهو بطبيعة الحال بعد ردح من زمن التكليف الأول وتطبيعه فيه ﴿خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ غور المعشار «و» حال أنه «علم» بأحد الوجهين أم كليهما ﴿أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ لا يجبر لضعف الفقه والصبر في الأكثر.

فـ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٢] وحينما الأكثر في الأكثر ليس لهم ذلك الصبر والصمود الذي كان في القلة المؤمنة الصابرة، إذاً فليخفف في التكليف.

ذلك ولا حاجة إلى تأويل العلم هنا بما تعوده المتأولون من خلاف

(١) قال عطاء عن ابن عباس: لما نزل التكليف الأول ضج المهاجرون وقالوا: يا رب نحن جياع وعدونا شباع ونحن في غربة وعدونا في أهليهم ونحن قد أخرجنا من ديارنا وأموالنا وأولادنا وعدونا ليس كذلك. وقال الأنصار: شغلنا بعدونا وواسينا إخواننا فنزل التخفيف، وقال عكرمة: إنما أمر الرجل أن يصبر لعشرة والعشرة لمائة حال ما كان المسلمون قليلين فلما كثروا خفف الله تعالى عنهم.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

الظاهر الباهر، إنما هو العلم بما هو حاصل من المعلوم بعد تحويل القلة إلى الكثرة، فقد كان يعلم من القلة الصابرة القوة فكلفهم كما يستطيعون، ثم كان يعلم من الكثرة غير الصابرة ضعفاً في الصمود والثبات المقدام فخفف المعشار إلى النصف.

أجل وإن الله تعالى عالم السر من ضمائر المضمِرين ونجوى المتخافتين، وخواطر رجم الظنون، وعُقَد عزيمات اليقين، ومسارق إيماض الجفون، وما ضمنته أكنان القلوب وغيابات الغيوب، وما أصغت لاستراقه مصائخ الأسماع، ومصايف الذرِّ، ومشاتي الهوامِّ، ورجْع الحنين من المُولَهات، وهمْس الأقدام، ومنفَسح الثمرة من ولائج غُلُف الأكمام، ومنقَمع الوحوش من غيران الجبال وأوديتها، ومختبأِ البَعوض بين سوق الأشجار وألحيتها، ومغرز الأوراق من الأفنان، ومحطّ الأمشاج من مسارب الأصلاب، وناشئة الغيوم ومتلاحمها، ودرور قَطر السحاب في تراكمها، وما تسقي الأعاصير بذيولها، وتعفو الأمطار بسيولها، وعَوْم بَنات الأرض في كُثبان الرمال، ومستَقر ذوات الأجنحة بذُرى شناخيب الجبال، وتغريد ذوات المنطق في دياجير الأوكار، وما أوعبته الأصداف وحضنت عليه أمواج البحار، وما غشيته سُدْفة ليلٍ، أو ذرَّ عليه شارق نهار، وما اعتقبت عليه أطباق الدياجير وسبحات النور، وأثر كل خطوة، وحس كل حركة، ورجع كل كلمة، وتحريك كل شفةٍ، ومستقر كل نَسَمة، ومُثقال كل ذرة، وهَماهم كل نفس هامَّة، وما عليها من ثمر شجرة، أو ساقط ورقة، أو قرار نطفة، أو نُقاعة دمٍ ومضغةٍ، أو ناشئة خلق وسُلالةٍ، لم يلحقه في ذلك كُلفة، ولا اعترضته في حفظ ما ابتدع من خلقه عارضة، ولا اعتورته في تنفيذ الأمور وتدابير المخلوقين ملالة ولا فترة، بل نفذهم علمه، وأحصاهم عدده، ووسعهم أعدَلُهُ، وغمرهم فضله، مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله[1].

(١) (الخطبة ٨٩).